Lamwntig cities in Andalusian poetry

Dr. Issa Fares*
Dr. Ruaa Kadah**
Rami Abdel Karim Khader***

(Received 20 / 1 / 2022. Accepted 22 / 3 / 2022)

□ ABSTRACT □

The tragedy of the fall of Andalusia is one of the most severe tragedies that occurred in Arab history. It represents the destructions of prosperous human civilization and Islamic landmarks that left their mark on history.

This tragedy expanded until it touched the land, thought, conscience and mind that spread the light of civilization in the Andalusian peninsula. That land whose love for its land was mixed with the souls of its people , and its shadows , rivers and trees mixed with their souls and hearts.

The tragedy of the fall of Andalusia turned the lights of Andalusia into complete darkness and turned its overflowing palaces and inhabited cities into ruins. This tragedy has also left its marks on the Arab conscience.

The poets traced this tragedy , chronicling the misfortunes and calamities that happened in Andalusia , immortalizing the Andalusian feeling of sadness and despair over what happened to their homeland.

Expressing these feelings with tears and crying in poetic, lamentable scenes that reflect sincere feelings that are less than their counterparts in Arabic poetry.

Keywords: Defeatist poetry – cring and begging – resistant poetry

***Professor - Department of Arabic Language - Faculty of Arts and Humanities Tishreen. University - Lattakia – Syria**
****Assistant Professor - Department of Arabic Language - Faculty of Arts and Humanities - Tishreen University - Lattakia - Syria**
*****Postgraduate student (PhD) - Department of Arabic Language Faculty of Arts and Humanities - Tishreen University - Lattakia – Syria**

رثاء المدنِ في الشعر الأندلسي

د. عيسى فارس*
د. رؤى قداح**
رامي عبد الكريم خضر***

(تاريخ الإيداع 20 / 1 / 2022. قبل للنشر في 22 / 3 / 2022)

□ ملخّص □

تعدُّ مأساة سقوط الأندلس من أشد المآسي التي وقعت في التاريخ العربي، فهي تمثّل تحطّم حضارة إنسانية زاهرة ومعالم إسلامية تركت أثرها في التاريخ، وقد اتسعت هذه المأساة حتى مست الأرض والفكر والوجدان والعقل الذي نشر ضياء الحضارة في شبه الجزيرة الأندلسية، تلك الأرض التي امتزج حبّ أرضها بأنفس أهلها، فامتزجت ظلالها وأنهارها وأشجارها بأرواحهم وأفئدتهم، وقد حوّلت مأساة سقوط الأندلس أنوار الأندلس إلى ظلام دامس، وأحالت قصورها العامرة ومدنها المأهولة إلى أطلال دارسة، وقد تركت هذه المأساة أيضاً أثرها في الوجدان العربي، فتتبع الشعراء هذه المأساة مؤرّخين لتلك المحن والنكبات التي حلّت في بلاد الأندلس مخلّدين شعور الأندلسيين بالحزن والانكسار على ما حلَّ بوطنهم، ومعبّرين عن تلك المشاعر بالدمع والبكاء في مشاهد شعرية رثائية تعكس إحساسات صادقة قلَّ نظيرها في الشعر العربي.

الكلمات المفتاحية: الشعر الانهزامي – البكاء والاستجداء – الشعر المقاوم

* أستاذ– قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية .
** مدرّسة – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.
***طالب دراسات عليا (دكتوراه)– قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين– اللاذقية– سورية.
Ahmadkdr1234567890@gamil.com

مقدمة

إنَّ ما حدث في مطلع القرن الهجري الخامس، من انهيار دولة الخلافة، ونشوب الصراعات الداخلية بين أبناء الدين الإسلامي من عرب وغيرهم، شكّل الأسباب الموضوعية لانهيار الدولة العربية في الأندلس، فسارع الخراب إليها، وأذنت ساعتها بتفككها ونشوب الصراعات بين أبنائها.

وقد عاشت الدولة العربية الإسلامية في الأندلس سلسلة من المآسي والنكبات، فبدأت هذه المآسي المحزنة بنكبة مدينة "قرطبة" عاصمة الخلافة الحاجبية. وقد مهدت فتنة قرطبة للانهيار الكبير لدولة الخلافة، وأعلنت قيام الفتن الداخلية التي نشأ عنها عصر الطوائف، والإمارات الممزّقة بدلاً من الدولة الواحدة الموحّدة .

وأخذت النكسة بعداً آخر انعكس في الأدب الأندلسي منذ القرن الهجري الخامس حينما بدأت المدائن الأندلسية الأخرى تسقط في أيدي ملوك الشمال الإسباني الذين قاموا بحروب الاسترداد، وفي مقدمة هذه المدن مدينة " طليطلة " التي سقطت أيام ملوك الطوائف، ومدينة "سرقسطة وبلنسية " اللتان سقطتا في عصر المرابطين، ثم تأتي المرحلة الأخيرة التي تسقط فيها آخر مدينة أندلسية، وهي " غرناطة " عاصمة دولة بني الأحمر.

وقد تتبّع الشعر الأندلسي هذه المحن المحزنة المؤلمة، وأرّخ لهذه الأحداث، وخلّد وقائعها التي تشكل ثروة كبيرة من المشاعر المحزنة، والتي عبّر عنها شعراء الأندلس بمواقف متباينة، فمنهم من رفض الواقع، ونقد الحكام الذين أوصلوا البلاد إلى ما هي فيه، ومنهم من دعا الشعب إلى التماسك والتلاحم لتلافي المزيد من الانهيارات، ومنهم من استسلم للهزيمة وآثر الانطواء على مأساته خوفاً وجبنا فجاء شعره منهزما مستكيناً لإحساسه بقضايا أمته.

منهج الدراسة .

تناولت هذه الدراسة رثاء الشعراء الأندلسيين للمدن الاندلسية، وهي دراسة هدفت إلى تسليط الضوء على فاعلية الحزن وأثره في إثراء التجربة الشعرية الاندلسية، ولتحقيق ذلك تمَّ الاعتماد على المنهج النفسي بوصفه أكثر المناهج اتصالاً بظاهرة الحزن مع الإفادة من المنهج التحليلي في تحليل نصوص الرثاء وبيان خصائصها الفنية.

وقد "اتسعت موضوعات الرثاء في العصر الأندلسي، وتنوّعت اتجاهاته، فهناك الرثاء الرسمي ورثاء الأهل والأقارب ورثاء الغلمان والرثاء المعنوي ورثاء المدن الأندلسية. ونقصد بالرثاء الرسمي رثاء الخلفاء والأمراء ورجال الدولة وقد أكثر الشعراء من هذا اللون ولكنهم خضعوا فيه غالباً لتوجيه الخلفاء الرسمي فكان الخلفاء يكلفون الشعراء أحياناً برثاء آبائهم وأقاربهم، وفي هذا الرثاء لم يكن الشعراء يعبّرون عن عاطفة صادقة، بل ينظمونه أداءً للواجب واستجابة لأوامر الخلفاء، فغلب عليه الفتور والضعف".[1]

وإذا ما نظرنا إلى هذا الموضوع باعتبار "أنَّ المرثي هو الأساس فيه، فإننا نجد نوعا جديداً من الرثاء ظهر في العصر الأندلسي، وازدهر في عصر بني الأحمر، وهو رثاء المدن، فالحبيب الذي فُقِدَ هنا هو الوطن، وهذا جاء بسبب تفرّق المسلمين وضياع كلمتهم، وتراجع بداياته منذ سقوط طليطلة".[2]

والأندلسيون لا يختلفون في مراثيهم عن المشارقة في "رثاء الميت والتفجّع عليه، بيد أنّهم تفوّقوا في رثاء الممالك البائدة، لما في نفوسهم من محبة صادقة لهذا الوطن، فكان يشجوهم أن يروا بلادهم تسقط بلداً إثر بلد في أيدي

[1] – **عيسى، د. فوزي، الهجاء في الشعر الأندلسي، دار الوفاء، ط1، 2007م. ص 166.**

[2] – **بسبح، أحمد، لسان الدين ابن الخطيب، عصره، بيئته، حياته وآثاره، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1994م. ص 17.**

الغرباء، ويعدّ رثاء المدن من المراثي السياسية. ولهذا اللون الشعري اتجاهان: اتجاه انهزامي نهج في الرثاء أسلوب البكاء والاستجداء، واتجاه مقاوم إيجابي حثَّ الشعب الأندلسي على مقاومة العدوان والاستبسال والذود عن الوطن.".[1]

أولاً : الشعر الانهزامي (البكاء والاستجداء).

لقد حاول الشعراء في هذا النوع من الشعر أن يثيروا العاطفة الدينية عند عامة الشعب مستنهضين الهمم في نفوسهم، فالإسلام يجمع أهل الأندلس من عرب وبربر وغيرهم، وقد جاءت هذه البكائيات مصحوبة بدعوات الاستنجاد، وممزوجة بالعتاب والتقريع والتوبيخ أحياناً لمن يرى حال الأندلس ويبقى ساكناً دون حراك.

وقارئ الشعر الأندلسي يستطيع أن يجد فيه مجموعة من الشعراء المنهزمين آثروا الخضوع والخنوع واليأس على أسلوب المقاومة والنضال، وفضّلوا العيش في جحيم الهزيمة وذلّها، ولم يستطيعوا تجاوز وقائعها وأحداثها. فانكمشوا على أنفسهم، وانزووا يجترون أحاسيسهم في صمت وبكاء، ويلقون تبعات ما حدث ويحدث من ملمات وكوارث على الدهر وغدر الزمن. وهم بذلك يصوّرون النكبة من جوانبها السلبية من خلال أشعار مليئة باليأس والدموع.

وعندما سقطت مدينة "طليطلة" سيطر اليأس على قلوب بعض هؤلاء الشعراء واسودت الدنيا في أعينهم، وفقدوا كل أمل في الأمن والاستقرار، كما نجد في قول ابن أبي العسال (عبدالله بن فرج اليحصبي).

يا أهل أندلس حثوا مطيكُمُ فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه و أرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
و نحن بين عدوٍ لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات في سفط [2]

فالشاعر هنا، يحث الناس على الفرار والهروب والتخلّي عن واجبهم الوطني، ورأى في مقام الأندلسيين في تلك الربوع ضربا من المجازفة التي لا تحمد عقباها، فهو في كل ذلك يصدر عن روح مهزومة، و يعبر عن تحطّم داخلي طغى على مشاعره، واستحوذ على تفكيره .

إن مثل هؤلاء الشعراء لم يقدموا شيئا لأمتهم في تلك الظروف القاهرة، لأن الخنوع تغلغل في أعماق نفوسهم، ولأن الجبن قد سيطر على شغاف قلوبهم .

ثمَّ إلى جانب هؤلاء الشعراء وجدنا شعراء آخرين شهد لهم التاريخ الأندلسي بمكانة عظيمة في دنيا الأدب شعراً ونثراً و لكنهم في ظل هذه الظروف، كانوا على هامش الأحداث ، ولم يهمهم الأمر من قريب أو من بعيد.

وذلك لأنَّ أشعارهم التي وصلت إلينا جاءت خالية من الشعر الذي يتناول قضايا الأمة المصيرية، أو جاءت متضمّنة لمقطوعة صغيرة أو مقطوعتين على الأغلب، مع أن أمر البلاد الأندلسية يحتاج إلى اهتمام يفوق ذلك بكثير، فهذا ابن خفاجة مثلا يرى تساقط المدن الأندلسية، في يد العدو، وينتشر الخراب في معالم الحضارة الأندلسية أمام ناظريه، ولا يتحرك لسانه بشيء من الشعر يعبر فيه عن انفعاله الداخلي،

[1] – **الطويل، يوسف، مدخل على الأدب الأندلسي، دار الفكر، بيروت، ط1، 1991م، ص 206.**

[2] – **ابن بسام، علي، الذخيرة، المجلد الثالث، ط1، لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، د.ت، ص223.**

إلا بعض أبيات بيث فيها عواطفه تجاه مدينته المحببة " بلنسية " عندما أحرقها " السيد الكمبيادور " في أيام المرابطين، وهذه الأبيات كلها تحسر، و تفجع، وبكاء على مصير المدينة العزيزة على قلبه :

عاثت بساحتك الظبا يا دار ومحا محاسنك البلى والنار
فإذا تردد في جنابك ناظر طال اعتبار فيك واستعبار
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها و تمخضت بخرابها الأقدار
كتبت يد الحدثان في عرصاتها لا أنت أنت ولا الديار ديار[1]

أي إحساس بارد! ألّا تحرك مأساة "بلنسية" في ضمير ابن خفاجة سوى الوقوف على معالمها الدارسة والاعتبار من سطوة الأقدار التي خربت جمال المكان وحميمية الديار؟!. و كأن الحكام لا علاقة لهم في ذلك كله.

وممّا يلفت النظر أيضا في موضوع الشعر المنهزم تلك الظاهرة التي انتشرت بين الشعراء، وهي أن بعضهم لم يكونوا يبكون إلا مدائنهم حيث ولدوا ،وعاشوا ودرسوا، ويتعصبون لها و يفضّلونها على كل المدن الأخرى مما حدا بشاعر مثل أبي إسحاق الإلبيري في قصيدة له يبكي فيها مدينته التي أصابها ما أصاب المدن الأخرى من خراب ودمار معاتبا أهل زمانه بقوله:

يُضيعُ مفروضٌ ويغفلُ واجبٌ و إنّي على أهلِ الزمانِ لعاتبُ
أتندبُ أطلالَ البلادِ ولا يرى لألبيرةَ منهم على الأرض نادبُ
لعهدي بها مُبيضّةَ الليلِ فاغتدت وأيامها قد سودّتها النوائبُ
وما كانَ فيها غير بشرى وأنْعُمٍ فلم يبقّ فيها الآن إلّا المصائبُ[2]

إن القصيدة، بصفة عامة، تعبّر عن بكائيّة فجائعيّة حادّة، فالشاعر في قصيدته الطويلة يندب الأطلال، ويبكي الأحبة من العلماء والحكماء والكرماء ويتفجع على مصير المدينة المظلم .

ومن هؤلاء الشعراء الذين لا يعرفون إلا الحنين والأنين والوقوف على الأطلال الدارسة، وتذرف الدموع الغزيرة عليها، ابن عميرة المخزومي لأن أكثر شعره لا يعبر إلّا عن الشكوى والتبرم، فقلما نجد له شعرا يحمل أنفاسا نضالية، فهو يعتبر بحق من الشعراء الذين يمثلون هذا الاتجاه السلبي اليائس، الاتجاه الذي لا يرى في المقاومة نفعا أو جدوى. يقول ابن عميرة بعد سقوط بلنسية :

ألا أيها القلب المصرح بالوجد أمالك من بادي الصبابة من بُدِّ
أمِن بعد رزءٍ في بلنسيةٍ ثوى بأحيائنا ، كالنار مضمرة الوقد
ألا ليت شعري هل لها من مطالع معادٌ إلى ما كان فيها من السعد
وهل أذنب الأبناء ذنب أبيهم فصاروا إلى الإخراج من جنة الخلد[3]

[1] – ابن بسام، علي، الذخيرة، المجلد الثاني، ط1، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، د.ت، ص111

[2] – الألبيري، أبو إسحاق ، الديوان، تحقيق، محمد رضوان الداية، دار الحكمة، بيروت، 1976م، ص354.

[3]– المقري التلمساني، أحمد، نفح الطيب، م1، تحقيق إحسان عباس ، ط1 ، دار صادر، بيروت 1968م، ص305.

إنَّ ابن عميرة لم يترك مكانا في بلنسية أو شُقر إلا ذكره، وحنّ إليه و بكى عليه، وهو في ذلك كله يستفيد من شعراء الأطلال في الأدب العربي على اختلاف طبقاتهم وعصورهم، وقد غدت بلنسية محبوبة فارقها ويتمنّى عودتها:

زدنا على النائين عن أوطانهم ... وإن اشتركنا في الصبابة والجوى
إنّا وجدناهم قد استسقوا لها ... من بعد أن شطت بهم عنها النّوى
ويصدنا عن ذاك في أوطاننا ... مع حبها الشّرك الذي فيها ثوى
حسناء طاعتها استقامت بعدنا ... لعدونا، أ فيستقيم لها الهوى؟.[1]

إنَّ الشاعر كما يبدو من خلال قصائده، هو شاعر حنين و دموع و شاعر أطلال وهو يذكر كل مكان سجل فيه الأشياء العزيزة في ماضيه الجميل، وقد طغت على أشعاره لغة شجية رقيقة حزينة، وأسلوبه يعبّر عن مشاعره البائسة الباكية .

كما نجد هذا النغم الحزين اليائس في شعر الأندلسيين الذين بكوا الأندلس بعد سقوط الإمارة "غرناطة " وأدركوا في يقين بأن آخر شمعة كانت لهم في تلك الديار قد انطفأت ولم يبق لهم إلا هذا الظلام الكثيف الذي خيم في أرجاء نفوسهم، وقد عبّروا بصدق عن تلك الإحساسات والذكريات المؤلمة بين الحين و الآخر، و يكفي هنا أن نتوقّف عند قصيدة نظمها ابن عبد الله العربي العقيلي على لسان أبي عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر في غرناطة معتذراً، باكياً، وطالباً العفو والغفران عن عدم الثبات والدفاع عن غرناطة، ومتوسلا إلى سلطان فاس في المغرب الشيخ الوطاسي، راجياً ألا يأخذه بأقوال الوشاة ولا يعاتبه على أشياء قدّرت وخطّت سطورها في اللوح بالقلم، وأن ينزله في جواره المنزلة اللائقة :

مولى الملوك ، ملوك العرب و العجم ... رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن ... جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلبا ... وأفظع الحظّ ما يأتي على الرغم
كنا ملوكا لنا في أرضنا دول ... نمنا بها تحت أفنان من النعم
فأيقظتنا سهام للردى صيب ... يرمي بأقبح حنق من بهن رمي
فلا تنم تحت ظل الملك نومتنا ... وأي ملك بظل الملك لم ينم[2]

ويظهر الانكسار النفسي هذه القصيدة الطويلة واضحاً، كما أن الضعف في الروح والاستسلام للأيام والخطوب في قصيدة العقيلي كانت نتيجة من نتائج انهيار الأندلس الشامل، فالموضوع كما نرى يتطلب هذه الأجواء القاتمة الحزينة، ولايستسيغ إلا هذه الألحان الشجية الكئيبة والبكاء الحار والخضوع للخطوب ونوائب الزمان . وهو يتحدث على لسان ملكه عن الليالي التي أبت إلا أن تصول صولتها وتدمّر تلك الحياة، وتقضي على ذلك الملك .

[1] – المقرّي التلمساني ، أحمد، نفح الطيب، م1، تحقيق إحسان عباس ، ط1 ، دار صادر، بيروت 1968م، ص310

[2] – المقري التلمساني، أحمد ، أزهار الرياض، ج1، تحقيق مصطفى السقا ، ط1 ، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1942م، ص73.

ولكنَّ بكائيات الأندلسيين ازدادت بعد سقوط غرناطة إذ لا يملك أصحابها غير البكاء والشعور في أعماق نفوسهم بالهزيمة الشاملة، وربما كان الملك أبو عبد الله الصغير أكثر الأندلسيين إحساسا بالألم والحسرة عندما وقف يلقي النظرة الأخيرة على قصور الحمراء راضخاً صاغراً، فزرفت عيناه الدمع الغزير فنظرت إليه أمه، وقالت :

إبك مثل النساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال

وما تزال تلك المنطقة التي وقف فيها الملك الأندلسي تعرف باسم " زفرة العربي الأخيرة".[1]

ثانياً: الشعر المقاوم (الملتزم).

لم يواجه بعض شعراء الأندلس النكبات والمحن التي حلّت بهم، بروح الاستسلام والتحسر، ولم يقفوا من الأحداث موقفا سلبياً، ولكنهم واجهوا ذلك كله بإرادة الصمود والنضال والمقاومة، وكان دورهم في ذلك دوراً عظيماً، وذلك من خلال نشرهم للوعي بين الناس، وبثّهم الحماس والحمية في النفوس، و كشفهم عن أسباب هزيمة حكام الأندلس وتراجعهم عن دورهم الوطني و الإسلامي .

إنّ دور شعراء الأندلس من هذه المحن أن يشدوا أبناء الأندلس إلى أصولهم الوطنية والدينية والحضارية، وهم بذلك قد سخّروا شعرهم لهذه القضايا والذود عن حياضها و مقدساتها، فكانت الكلمة لديهم عنواناً لرفض كل الجوانب السلبية؛ لأن الكلمة إنّما تصير خالدة بعد ان تقوم بذلك كله!! تتصدى لكل شيء يريد المسَّ بالوطن، والمقدسات الإسلامية، والمثل والقيم التي تؤمن بها الأمة الأندلسية، وهذه مسؤولية عظيمة نهض بها هؤلاء الشعراء من غير ضعف أو انتكاسة أو تخاذل.

لقد بدأ الشعراء الملتزمون بقضايا أمتهم بتعرية ملوكهم المتخاذلين، ينتقدونهم، ويفضحون أساليبهم في الحكم والسياسة، وقد كشفوا الدور القذر الذي يلعبه ملوكهم فوق مسرح الأحداث، وهو ما أدى إلى فقدان الأمة لكراماتها ومقدساتها. وهذا ما جعل الشعراء يعبّرون عن سخطهم وغضبهم على هؤلاء الملوك والأمراء الذين لاهمّ لأحدهم إلا في كأس يشربها، وقينة يسمعها ويعشقها، وحرب يعلنها على جاره و شقيقه . ويأتي في مقدمة هؤلاء الشعراء " السميسر بن خلف " أحد شعراء عصر الطوائف الذين هاجموا هؤلاء الأباطرة الخانعين، في قصائد ملتهبة كقوله :

نادِ الملوك وقل لهم ماذا الذي أحدثتمُ
أسلمتم الإسلام في أسرِ العِدى و قعدتمُ
وجبَ القيامُ عليكم إذ بالنصارى قمتمُ
لا تنكروا شقَّ العصا فعصا النبي شققتمُ[2]

إن هذه الأبيات أقرب إلى لغة النثر والحديث العادي، لكنها تعكس الإحساس الصادق الذي كان يعتمل في ضمير الشاعر والأمة تجاه هؤلاء الملوك. فأعمالهم توضع في الميزان.... فماذا فعلوا ؟ و ما

[1] – ينظر، د.يوسف شكري فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1982م، ص64-68.

[2] – ابن بسام، علي، الذخيرة، المجلد الثاني، ط1، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، د.ت، ص374.

الخدمات التي قدموها لشعوبهم ؟. إنهم أسلموا المدن الإسلامية في أسر العدى، وقعدوا يتفرجون على مآسي الناس وعذاباتهم، وشقّوا عصا الطاعة على النبي، وتنكّروا للتعاليم الدينية، فهم إذن بعيدون عن أحلام الأمة و مثلها. ومن ثم فإن القيام عليهم واجب، وتنحيتهم ضرورة حتمية !.

بهذه الجرأة والقوة والعنفوان عبّر" السميسر بن خلف "عن ضمير الأمة، وتصدى لهؤلاء الملوك في غير خوف ولا وجل، بل هو في قصائد أخرى يتحداهم، ويتوعدهم بالقصاص والعقاب في قادم الأيام كقوله :

رَجوناكم فما أنصفتمونا وأمَّلناكم فخذلتِمُونا
سنصبرُ والزمان له انقلابٌ وأنتم بالإشارةِ تفهمونا[1]

إن هذه الأشعار تدل على أن " السميسر بن خلف" هو من أكثر شعراء الأندلس غيرة على الوطن، وهو يتعدى في مواقفه النظرة الذاتية إلى جهات أعمَّ وأشمل، وأشد ما كان يؤلمه أن يرى حكام زمانه يصانعون أعداء الوطن.

وتشير إحدى الروايات إلى موقف للسميسر اتّسم بالجرأة إزاء تعرضه لأمير غرناطة " باديس بن حبوس " عندما استوزر وزيراً يهودياً، فنظم أبياتا كتب منها نسخاً عدّة ورماها في شوارع المدينة وسار من ساعته إلى المرية معتصماً بالمعتصم بن صمادح، وانتشرت الأبيات في أقطار الأندلس، ولما وقف عليها باديس أرسل وراءه فرسان الخيل ففاتهم ولم يلحقوه، ومن هذه الابيات قوله :

صاحب غرناطة سفيهٌ و أعلم الناس بالأمور
صانع أذفونش والنصارى فانظر إلى رأيه التدبير
و شاد بنيانه خلافا لطاعة الله والأمير
يبني على نفسه سفاها كأنه دودة الحرير
دعوه يبني فسوف يدري إذا أتت دورة القدير[2]

إن السميسر في اتجاهه هذا عبر بحق عن ضمير الأمة ، و كان صوته الغاضب هو صوت الشعب بأسره. وقد قال عنه الدكتور الطاهر أحمد مكي : " وله من زمنه موقف رافض حين رأى اختلال القيم، وزهوة الباطل، وغلبة الصغار، وجاء هجوه لهم مفحشا، ونقدا قاسيا، فأهمله المؤرخون خوفا ممن هجاهم ".[3]
وإذا كان السميسر يصرح بمواقفه علناً من غير خوف فإن كثيرا من الشعراء جاؤوا بأشعارهم دون ذكر الاسم تحسباً من بطش الحكام وانتقامهم كقول أحدهم في سقوط مدينة " طليطلة "

وقيل تجمّعوا لفراق شكلٍ طليطلة تملكها الكفور

[1] – المصدر نفسه، ص374.

[2] – ينظر، فوزي عيسى، الهجاء في الأدب الأندلسي، نقلاً عن مخطوط معجم السفر للسلقي، ط1، دار المعارف المصرية، القاهرة، د.ت، ص58.

[3] – الطاهر أحمد مكي، دراسات أندلسية، ط3، دارالمعارف، القاهرة، 1987م، ص65.

فقـــل فـــي خطـــة فيهـــا صـــغار يشـــيب لكربهـــا الطفـــل الصـــغير[1]

إنّها نكبة تسبب بها ملوك الطوائف في خطة زائفة متواطئة نسجوا خيوطها مع حكام الشمال الاسباني، وقعدوا وتكاسلوا عن القيام بواجبهم الوطني.

ولكن شعراء الأندلس الذين يشيرون إلى الخلل ويحددون أسبابه ولم يجدوا في سقوط طليطلة نهاية المطاف، بل عدّوا الأزمة مازالت في بدايتها، والجرح مازال غير عميق، لذلك رفضوا الهزيمة، واستنهضوا حمية الناس للدفاع عن كرامتهم والأخذ بثأرهم، غير أن أبناء الأندلس أصابهم الإحباط واليأس والملل والسأم من الحكام و الشعراء، وربما أصاب بعض الشعراء ما أصاب أبناء الأندلس كقول أحدهم :

أرى الملـــوك أصـــابتهم بأنـــدلس دوائـــر الســـوء لا تبقـــي ولا تـــذرُ
نـــاموا و أســـرى لهـــم تحـــت الـــدجى قـــدر هـــوى بـــأنجمهم خســـفا ومـــا شـــعروا
وكيـــف يشـــعر مـــن فـــي كفـــه قـــدح يحـــدو بـــه ملهيـــاه : النـــاي والـــوترُ
فإنّـــا مـــثلهم و أشـــد مـــنهم نجـــور و كيـــف يســـلم مـــن يجـــورُ؟
يـــزول الســـر عـــن قـــوم إذا مـــا علـــى العصـــيان أرخيـــت الســـتور[2]

فالشاعر في ظل الظروف المحيطة به ينظر إلى الناس الذين يعيش بينهم فيجدهم فقدوا كل صور البطولة والشجاعة وتلاشت في نفوسهم كل عزيمة وحميّة .

لذلك أخذ الشاعر يبحث عن بطل يحمل آمال الأمّة الأندلسيّة ويخوض فيها غمار معارك الثأر ليعيد الزمان إلى سابق عهده قوةً وعنفواناً وحضوراً كقولهم :

ألا رجـــــل لـــــه رأي أصـــــيل بـــــه بمـــــا نحـــــاذر نســـــتجير
يكـــــر إذا الســـــيوف تناولتـــــه وأيـــــن بنـــــا إذا ولـــــت كـــــرور
وطعـــــن بالقنـــــا الخطّـــــار حتـــــى يقـــــول الـــــروم مـــــا هـــــذا الخطيـــــر
خـــــذوا ثـــــأر الديانـــــة وانصـــــروها فقـــــد حامـــــت علـــــى القتلـــــى النســـــور
ولا تهنـــــوا وســـــلوا كـــــل عضـــــب تهـــــاب مضـــــاربا عنـــــه النحـــــور
وموتـــــوا كلكـــــم فـــــالموت أولـــــى بكـــــم فـــــإن تجـــــاروا أو تجـــــوروا[3]

من الملاحظ أن هذه القصيدة غنية بالصور التي تعبّر عن الأوضاع الأندلسية القاسية، وتحكي عنها بصدق ووضوح، وقد استمد الشاعر صوره الشعرية من البيئة التي يعيش فيها والمجتمع الذي ينتمي إليه، ولا ينسى أن يستخدم في قصيدته بعض الصور القديمة التي تصور المعارك الحربية بتفاصيلها الدقيقة،

[1] – المقرّي التلمساني، أحمد، نفح الطيب للمقري التلمساني، تحقيق، محي الدين عبد الحميد، ط1 ، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1949م، ص228.

[2] – المقري التلمساني، أحمد، نفح الطيب، تحقيق: إحسان عباس، ج4، ص447.

[3] – لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، ليفي بروفنسال،ط1،بيروت، 1956م، ص241.

كصورة النسور التي تحوم حول القتلى، وصورة الموت في ميدان الشرف، ورفض الذل والهوان، والعيش في ظلال القوة والعزة .

ولكن سقوط مدينة إشبيلية جعل الشعراء أقل حماسة للتحرير وأفتر تفاؤلا بالمستقبل وبإعادة المدن والحصون اعتمادا على أهل الأندلس وحكامهم، فأخذوا يستصرخون ويستنجدون بإخوانهم من حكام وأهالي المغرب من أجل الإبقاء على المدينة الأخيرة الباقية للعرب من الأندلس وهي مدينة غرناطة، فهذا أبو عمران المرابط، شاعر بني الأحمر وكاتبهم ينشئ قصيدة يستنجد بها السلطان يوسف المريني في المغرب بقوله :

هذا الهدى داعٍ فهل من مُسعفٍ ... بإجابة وإنابة أو مُسعفِ
هذا سبيل الرشدِ قد وضحت فهل ... بالعدوتين من امرئ مُسترشدِ
أثعَزُّ من أرضِ العدو مدائنٌ ... واللهُ في أقطارهم لم يُعبدِ
أبني مرين ، أنتمُ جيراننا ... وأحقُّ من صرختي بهم أبتدي[1]

غير أن استمرار هذا النمط من الأشعار المقاومة، بعد سقوط غالبية المدن الأندلسية، جاء في أنفاس ضعيفة و في نبرات حزينة لأنها فقدت بعض عناصرها وخصائصها، التي كانت قبل هذا الوقت، من حماسة وقوة و عزيمة صادقة، وتحولت قصائد الشعراء إلى وصف مأساة الأرض الأندلسية، والمدن التي ضاعت، ومأساة الحضارة، والفكر، والإنسان.

و ربما أراد أصحاب هذه القصائد أن يقدموا لإخوانهم في المغرب قصة أمة جريحة أعيتها الحيلة في الدفاع عن نفسها، وذلك لتعبئة أهل المغرب والتأثير فيهم للمساعدة والإنقاذ، ولكن هذا الاستصراخ لم ينجح دائما فالمغاربة " الشعب " كانوا يتأثرون ويرغبون بالمساعدة والمشاركة في الجهاد إلى جانب إخوانهم الأندلسيين على أن الحكام كانوا يماطلون ويسوفون قبل أن يقرروا ذلك.

وقد أشار أبو البقاء الرندي إلى ذلك منتقدا فرسان المغرب الراتعين وراء البحر في دعة، ولم يستجيبوا لصرخات واستغاثات إخوانهم في الأندلس حين قال في بكائيته الرائعة :

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة ... كأنها من مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة ... كأنها في ظلام النقع نيران

فالأبيات تعبر عن ألم دفين ولوعة وتحسّر وعتب مضمر على من يستطيع أن يمارس الفعل ويتأخر عن فعله، وما يترتب على ذلك من فعل انعكاسي عند الآخر.

إنّ هذه الأنفاس الشعرية القوية تارة، والمستنجدة تارة أخرى أخذت تتلاشى كما تتلاشى خيوط الفجر، أمام نور النهار، وهذه الآمال التي يؤمن أصحابها بالمستقبل وإعادة الفتح من جديد، ستفقد زخمها عندما يسودّ الأفق من حول الإمارة الأخيرة الباقية للعرب في الأندلس، وقد عبر لسان الدين بن الخطيب عن قلق

[1] – ابن خلدون، العبر في المبتدأ والخبر،ج7، دار القلم، بيروت، د.ت، ص198.

أهل الأندلس وحيرة أهل المغرب مما يجري في الحصون المحيطة بمدينة غرناطة وهي تتساقط الحصن بعد الآخر بقوله :

ثغور غدت ، مثل الثغور ضواحكا أقام عليها الكفر ، يرشفها رشفا
وكيف يعيث الكفر فينا و دوننا قبائل منكم تعجز الحصر ، والوصفا
وها نحن ، قد لذنا ، بعزِّ حماكم ونرجو من الله الإدالة واللطفا[1]

وهذه القصيدة استنجد فيها لسان الدين بأبي الحسن المريني، الذي تلقى في وقت مضى، هزيمة عظيمة في موقعة " طريف " و قرر بعدها مغادرة الأرض الأندلسية إلى تونس حيث أسس حكما هناك تولاه بعده ولده أبو عنان المريني" . [2]

ومهما يكن من أثر فإن الشعر الملتزم في الأعوام الأخيرة للحكم الغربي في الأندلس، رغم ما نلاحظه فيه من أنفاس قوة، فهو ضعيف النبرات كثير الإحساسات الحزينة التي تختلج في صدور الأندلسيين بسبب هذا المصير الحالك الذي تنتظره الأندلس. فالأرض التي بقيت في يد العرب الأندلسيين تتقلص ظلالها يوما بعد يوم ، وتراث الأمة يتبدد لحظة بعد لحظة، والشعر يسجل هذه الأبعاد المأساوية في بكائية من الدمع.

خاتمة.

وهكذا فبكائية المدن الأندلسية لم نجد لها مثيلا في التاريخ التي عرفت فجائع مماثلة ، وإن كان بنسب متفاوتة. لكنَّ أشعار العرب في الأندلس جاءت أكثر ألما و أشد وجعاً و أغزر بكاءً، وهذا أمر صادق عبّر عنه الشعر الأندلسي، كما هي عادة الأدب الذي يتناول مثل هذه الأوقات العصيبة في حياة الأمم.

وقد تزامن الوقت التراجعي لحضارة العرب السامقة في الأندلس مع امتداد الحملات الصليبية على المشرق، ومن الطبيعي و البديهي أن يسعى أنصار هذه الحملات إلى اجتثاث شأفة العرب في الأندلس في تلك الأرض الأوربية، وكان لهم ماأرادوا، وأسقطوا غرناطة آخر معاقل الأندلسيين التي كان يحكمها ملوك صغار من بني الأحمر طحنتهم النزاعات الداخلية، وأنهكتهم الخلافات العائلية، بين الأخ وأخيه، والعم وابن أخيه، وكل من يباري في كسب ودّ خصومه الإسبان، ويحرضهم على أخيه أو عمه ظنا منه أن النجاة و الاستمرار في الحكم سيكون عن طريق مثل هذه التحالفات المذلة.

وقد عبّر الأديب الأندلسي أكان ثائرا أم شاعراً، عن هذه التحولات السياسية الخطيرة وسجلها تسجيلاً وثائقيا تاريخيا يمتد من أواخر الدولة الحاجبية إلى سقوط غرناطة. وهذا الإنتاج الأدبي الذي تناول رثاء المدن الزائلة والبكاء عليها جاء بلغة عاطفية مؤثرة تتوجه مباشرة إلى النفوس المتعطشة إلى الكلمة الصادقة و الرأي الحر. كما أن هذا الأدب البكائي تناول المأساة الأندلسية تناولاً واقعياً لا تخيّل فيه، ولا تصوّر، فالأديب الأندلسي كان يعاين الواقعة بأم عينه فيصفها، ويوثقها بنبضة فؤاد صادقة بعيدة عن الزيف والصنعة والنظم الحرفي، ولكن ذلك لم ينفع الأندلسيين لأن الخرق اتسع والداء أعضل أهل الأندلس، والفاجعة كانت أكبر منهم وخارج حدود إرادتهم لذلك لم يجدوا بدّاً من الاستسلام لما خطّه القدر في لوح الزمان، فكانت نهاية الحلم الجميل الذي يدعى الأندلس .

---

[1] – **الصيب والجهام، ص 628.**

[2] – **ينظر: تاريخ ابن خلدون، ج7، ص333.**

المصادر والمراجع.

1- أبو إسحاق الألبيري، إبراهيم، الديوان تحقيق محمد رضوان الدايه، ط1، دار الحكمة، بيروت 1976.

2- أحمد مكي ، الطاهر ، دراسات أندلسية ، ط3 ، دار المعارف المصرية ، القاهرة ، 1987.

3- ابن الخطيب، لسان الدين، الصيب والجهام، تحقيق محمد الريف قاهر، الجزائر، ط1، 1973م.

4- ابن الخطيب، لسان الدين، أعمال الأعلام، ليفي بروفنسال، ط1، بيروت، 1956م.

5- ابن خلدون، عبد الرحمن، العبر في تاريخ المبتدأ والخبر، ج7، دار القلم، بيروت، د.ت.

6- ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، ط1، دار القلم ، بيروت، 1978م.

7- ابن بسام، علي، الذخيرة، المجلد الثاني، ط1، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، د.ت.

8- سعد عيسى، فوزي، الهجاء في الأدب الأندلسي، ط1، دار المعارف المصرية،القاهرة، د.ت.

9- عيسى، د. فوزي، الهجاء في الشعر الأندلسي، دار الوفاء، ط1، 2007م. ص.

10- فرحات، يوسف شكري، غرناطة في ظل بني الأحمر، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر،بيروت،1982م.

11- المقري التلمساني، أحمد، نفح الطيب، ج4، تحقيق: إحسان عباس، ط1، دار صادر، بيروت، 1968م.

12- المقري التلمساني، أحمد، نفح الطيب، ج6، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، ط1، دار الكتاب العربي – القاهرة 1949.

13- المقري التلمساني، أحمد، أزهار الرياض، تحقيق: مصطفى السقا، ط1، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1942م.

Sources and references

Abu Ishaq Al-Albuiri, Ibrahim, Al Diwan, Investigation Mohammed Radwan Al-Dayeh, T1, Dar al-Hikma, Beirut, 1976.

Ahmed Makki, Taher, Dirassat Andaloussia, T3, Dar Al Ma'aref al al Masria, Cairo, 1987.

Al-Muqri Al- Telmeceni, Ahmed, Azhar al Riyadh, Mustafa Al-Sakka Investigation, T1, Committee of Authorship and Publishing, Cairo, 1942.

Al-Muqri Al-Telmeceni, Ahmed, Nafh al-Tyb, C4, Investigation Ihsan Abbas, T1, Dar Sader, Beirut, 1968..

Al-Muqri Al-Tlemceni, Ahmed, Nafh al-Tyb, C6, Investigation Mohieddin Abdel Hamid, T1, Dar al Kitab al Arabi - Cairo, 1949.

Ibn al-Khatib, Lisan al-Din, Al-Sabe wa Al-Jiham, Investigation Mohamed al Rif Qaher, Algeria, T1, 1973.

Ibn al-Khatib, Lisan al-Din, A'mal Al A'lam, Levi Provencal, T1, Beirut, 1956.

Ibn Bassam, Ali, Al Zakhira, Volume II, T1, Committee of Authorship and Publishing, Cairo, D.T.

Ibn Khaldun, Abdul Rahman, Al Moukqdima, T1, Dar al-Qalam, Beirut, 1978.

Ibn Khaldun, Abdul Rahman, Al-Ibar fi Tarikh al Moubtada' wa al Khabar, C7, Dar al-Qalam, Beirut, D.T..

Issa, Dr. Fawzi, Al Hija' fin Al Chear Al Andalousi, Dar al-Wafa, T1, 2007. AM.

Saad Issa, Fawzi, Al Hija' fin Al Adab Al Andalousi, T1, Dar Al Ma'aref al al Masria, Cairo, D.T..

Shukri Farhat, Youssef, Ghernata fi zel Bani Al-Ahmar, T1, University Foundation for Studies and Prose, Beirut, 1982.